٧

صورة الشجاعة والجبن عند المتنبي(ت٣٥٤هـ)

أ.د صالح أحمد رشيد

أصداء علي حسين

Prof. Dr. Saleh Ahmed Rashid

(Asdaa Ali Hussein)

Aliassds199@gmail.com

الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

College of Education for Girls Department of Arabic Language Iraqi University

الملخص

تعد الشجاعة والجبن من اكثر الصفات التي دارت في شعر في العصر العباسي الثاني، نظراً لكثرة الصراعات على السلطة بين قوى متعددة تنتمي لقوميات متعددة وقد جاء البحث لتسليط الضوء على صفة الشجاعة والجبن لدى أهم شعراء تلك المدة وهو المتنبي ، وقد جاء البحث مقسوم على مقدمة ومبحثين: الأول اختص بدراسة صورة الشجاعة عند المتنبي، والثاني اختص بدراسة صفة الجبن عند المتنبي ثم خاتمة تضمنت نتائج البحث فضلا عن قائمة المصادر والمراجع.

Abstract

Courage and cowardice are among the most common traits in poetry in the second Abbasid era, due to the many conflicts over power between multiple forces belonging to multiple nationalities. The research came to shed light on the trait of courage and cowardice in the most important poets of that period, Al-Mutanabbi. The research came divided into an introduction and two sections: the first was devoted to studying the image of courage in Al-Mutanabbi, and the second was devoted to studying the trait of cowardice in Al-Mutanabbi, then a conclusion that included the results of the research in addition to a list of sources and .references

المقدمة

تعد الشجاعة والجبن من الصفات التي كثيراً ما تغنى بها الشعراء في العصور عامة، وفي العصر العباسي بشكل خاص، فهي من سمات العصر الذي عُرف بالتنافس على المناطق، والنفوذ في دولة نهش الضعف والتشتت جميع أطرافها فكان السيف إحدى الوسائل في تحصيل السلطة، فلابد إن تأخذ صفة الشجاعة دورها على ألسن الشعراء، ولكنها تتفاوت من شاعر لآخر تابعة لتوجهات الشاعر نفسه، فضلا عن تأثير الظروف المحيطة به من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد عرف القرن الرابع الهجري صراع دموي مرير بين قوى متعددة كلها تنطوي تحت راية الدولة العباسية أسميا، وهي مستقلة عنها فعلياً، فكثرة الحروب والصراعات بين هذه القوى طبعت الأدب العربي بطباع هذه الحقبة فكثير ما أشيد بالشجاعة ف يالمديح ، وذم

صورة الشجاعة والجبن عند المتنبي(ت٣٥٤هـ)

الجبن في الهجاء، ولأهمية الموضوع أرتأيت دراسة صورة ضدية في شاعر مهم من شعراء القرن الرابع الهجري وهو المتنبي في بحثي الموسوم بـ(صورة الشجاعة والجبن عند المتنبي)، وقد قسم البحث على مقدمة، ومبحثين في الأول درست صورة الشجاعة ، والثاني صورة الجبن ، ثم خاتمة تضمنت نتائج البحث فضلا عن قائمة المصادر التي اعتمد عليها البحث.

المطلب الأول: صورة الشجاعة في شعر المتنبي

قبل التطرق للموضوع يجدر الملاحظة إنّ المتنبي كان أكثر الشعراء مجالسة للملوك، وشعره في المديح أكثر من بقية الأغراض ، والعصر الذي عاش فيه عصر حروف وتنازع فمن البديهي كثرة هذه الصفة في شعر، والسبب الآخر مرتبطٌ بشخصية المتنبي، فهو يصف نفسه بالشجاعة والإقدام في كثير من مواقفه، بل في كثير من الأبيات يحدد إن فضل السيف سابق على القلم في عصر كالعصر الذي عاش فيه وهو عصر الاضطرابات السياسية.

وأبو الطيب المتنبي تميز بكون خلق الشجاعة والفداء محوريا في مسيرته، كيف لا وهو الذي أقبل على موته عندما ذُكِّرَ ببيته السائر [١]: [البسيط]

الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ [٢]

بل إن علاقته بسيف الدولة الحمداني ممدوحه الذي شكلت قصائده في مدحه طائفة من القصائد عرفت باسمه (السيفيات) –كانت هذه العلاقة قائمةً في الأساس على إعجاب أبي الطيب المتنبي بشجاعة سيف الدولة وبطولاته وفروسيته في حروبه مع الصليبيين[٣]، فالشاعر قد أوقف شعره على سيف الدولة فترة طويلة وقد كان يرى فيه صورة الكريم المتكاملة كما يرى الدكتور طه حسين: ((كان سيف الدولة أميراً عربياً شريف الأصل، كريم النسب، جواد اليد بعيد الهمة.....وكان سيف الدولة مجاهداً يناضل عن الإسلام، ويحمي ثغور المسلمين من قبل الروم))[٤]، فهذه الصفات لم تجتمع بأميرٍ أو ممدوح للمتنبي سوى سيف الدولة لهذا قال فيه شعراً يعد من نفائس الشعر العربي.

ومن شواهد صورة الكريم الشجاعة في شعر ابي الطيب المتنبي قوله [٥]: [الكامل]

لَوْلَا سَمِيُّ سُيُوفِهِ وَمَضَاؤُهُ لَمَّا سُلِلْنَ لَكُنَّ كَالأَجْفَانِ
خَاضَ الحِمَامَ بِهِنَّ حَتَّى مَا دَرَى أَمِنِ احْتِقَارٍ ذَاكَ أَمْ نِسْيَانِ
وَسَعَى فَقَصَّرَ عَنْ مَدَاهُ فِي العُلَى أَهْلُ الزَّمَانِ وَأَهْلُ كُلِّ زَمَانِ
تَخْذُوا المَجَالِسُ فِي البُيُوتِ وَعِنْدَهُ أَنَّ السُّرُوجَ مَجَالِسُ الفِتْيَانِ
وَتَوَهَّمُوا اللَّعِبَ الوَغَى وَالطَّعْنُ فِي الـ ـهَيْجَاءِ غَيْرُ الطَّعْنِ فِي المَيْدَانِ
قَادَ الجِيَادَ إِلى الطِّعَانِ وَلَمْ يَقُدْ إِلَّا إِلَى العَادَاتِ وَالأَوْطَانِ

في هذه الأبيات نجد المتنبي يرسم صور البطل الشجاع الذي لولا شجاعته ومضاء عزمه لم تكن السيوف أداة قطع في أيدي جنوده، بل كانت رغم استلالها كالأغماد في أيديهم، يصف المتنبي ذلك البطل الذي يقتحم الصفوف غير مبال بما يمكن أن يصيبه في خضم المعركة حتى يتحير الناظر إليه في علة هذا الإقدام واللامبالاة بالخطر: هل هذا لأنه يحتقر ذلك الخطر أم لأنه قد نسي أنه في موقف يجب فيه الخوف والحذر [٦]، فالشاعر يرى إن الأمير قد خالف أبناء عصره إذ يرى إن مجالس الفتيان هي سروج الخيل لا غيرها، ثم يعمد لمقارنة بينه وبين اقرانه من امراء وملوك فلم يفقه أحد في هذه الفضائل

وقد لمح أبو سعد العميدي (ت: ٤٣٣هـ) من إن بيت المتنبي مولد من بيت أبي الشمقمق: [من بحر الخفيف] [٧]

خَاضَ بَحْرَ المَوْتِ الزُّؤَامِ كَنَاسٍ أَوْ كَمُسْتَحْقِرٍ لَهُ مُسْتَهِينِ
وَسَعَى فِي اكْتِسَابِ شُكْرٍ وَحَمْدٍ وحَوَى ما ابْتَغَي بِغَيْرِ مَعِينِ

فالشاعر كثير ما كان يحاول الافادة من لقب سيف الدولة في وصفه سيفاً من سيوف العرب ضد الروم أو أعداء الخلافة أو أعداء الأمير نفسه (صورة البطل الشجاع)، وذلك في البيت الأول كما لا حظنا، ويقول في قصيدة أخرى يمدح بها سيف الدولة الحمداني [٨]، من ذلك قوله[٩]: [الطويل]

لِكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا وَعادَةُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا
وَأَن يُكذِبَ الإِرجافَ عَنهُ بِضِدِّهِ وَيُمسي بِما تَنوي أَعاديهِ أَسعَدا
وَرُبَّ مُريدٍ ضَرَّهُ ضَرَّ نَفسَهُ وَهادٍ إِلَيهِ الجَيشَ أَهدى وَما هَدى
وَمُستَكبِرٍ لَم يَعرِفِ اللَهَ ساعَةً رَأى سَيفَهُ في كَفِّهِ فَتَشَهَّدا

أول ما يلحظ على النَّص الشعري إنّ الشاعر يربط بين لقب الممدوح والصفة التي ينسبها له، وهذه إن دلت فتدل على مدى قدرة الشاعر على توظيف ما يتاح له أو ما توفره له اللغة من خصائص، والصفة الأخرى التي ألحقها المتنبي بسيف الدولة هي الطعن وهو خاص بالرمح، فجعل منه سيفاً ورمحاً في الوقت ذاته، وهي عادة نشأ عليها الأمير فلم يتكلف ولم يتصنعها، فالشجاعة صفة ملازمة للأمير الحمداني[١٠]، وهي صفة ضرورية في عصر مثل عصر المتنبي: ((إن ابرز وسائل بقاء الأوطان والمحافظة عليها هي القوة، وما يمكن أن يميز الناس عن بعضهم هي وسيلة الدفاع عن النفس، وعن الوطن حين تلم الملمات))[١١]، فالشاعر

يشيد بشجاعة هذا الأمير الحمداني ويصف ما رآه عياناً ولم يسمعه من الآخرين، وقد كان المتنبي يصحب سيف الدولة في غزواته وقد قدمه الأمير على الكثير من القواد [١٢].

وفي قصيدة أخرى على الشاكلة ذاتها يبدع المتنبي في تجسيد صورة الشجاع فيقول[١٣] [البسيط]

أَعلى المَمالِكِ ما يُبنى عَلى الأَسَلِ ... وَالطَعنُ عِندَ مُحِبّيهِنَّ كَالقُبَلِ

وَما تَقِرُّ سُيوفٌ في مَمالِكِها ... حَتّى تُقَلقَلُ دَهراً قَبلُ في القَلَلِ

مِثلُ الأَميرِ بَغى أَمراً فَقَرَّ بِهِ ... طولُ الرِماحِ وَأَيدي الخَيلِ وَالإِبِلِ

بالنظر البسيط للأبيات تعطينا صورة عن العصر الذي قيلت فيه وهو عصر شهد الاضطرابات السياسية والقتال بين الممالك حتى أصبح السيف تصنع به الممالك وتحفظ به، وهذا يدل بشكل ما على فلسفة الحياة عند المتنبي: ((ويقر المتنبي أنّ قيمة الوطن تتحدد أيضاً بنوع العطاء الذي يقدمه إليه ابناءه فإن اغلى الأوطان ما أُخذ اقتصاراً لا جاء عفوا))[١٤]، فهذه الإشارة محاولة تحفيزية لسيف الدولة من أجل النهوض من أجل استعادة أمجاد العرب، وأنّ قصة القصيدة ذهاب المتنبي لمساعدة أخيه بعد إن زحف عليه جيش، ولما علم الجيش بقدوم سيف الدولة هرب وترك بلادهم [١٥]، فالأمير لم يعتمد الكتب ولا الرسائل بل السيف والقتال، فعندما أراد أمراً استعان بأقرب الوسائل وهي الجيوش، فجعل الرماح تكتب الكتب التي أرسلت، والجيوش أبدال من الرسل، وهي صورة متكاملة بالجرأة والشجاعة والنخوة والإقدام، ((قد دافع عن الخلافة الإسلامية وقاتل الروم وهزمهم في معارك))[١٦]، فهذا التوجه الحربي لدى الأمير سيف الدولة قد لامس نفس المتنبي فمدحه بأبيات تعد من عيون الشعر العربي وبهذا يقول طه حسين: ((ليس من الإسراف في شيء أن يقال إنّ للمتنبي في سيف الدولة ديواناً خاصاً يمكن أن يستقل بنفسه، وهو إنْ جُمِع في سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي وأروحه وأحقه بالبقاء، بل من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقه بالبقاء))[١٧]، فالشعر في سيف الدولة عامة وهذا النص خاصة من النصوص التي تميزت بالجودة والجمال.

وفي موضع آخر يمتدح المتنبي نفسه بهذه الصفات نحو قوله [١٨]: [البسيط]

ضَيفٌ أَلَمَّ بِرَأسي غَيرَ مُحتَشِمِ ... وَالسَيفُ أَحسَنُ فِعلاً مِنهُ بِاللِمَمِ

إِبعِد بَعِدتَ بَياضاً لا بَياضَ لَهُ ... لَأَنتَ أَسوَدُ في عَيني مِنَ الظُلَمِ

بِحُبِّ قاتِلَتي وَالشَيبِ تَغذِيَتي ... هَوايَ طِفلاً وَشَيبي بالِغَ الحُلُمِ

نرى المتنبي ينطلق في هذا السياق الشعري بالفخر، والمديح للنفس، والتحرك بالوعيد والتوعد لكل من يهد طموحه، فقد مل من الانتظار وقد حانت ساعة اقتحامه الوغى، بصورة تجعل البلاد تتناسى بروق الجو وتنشغل ببارقة المتنبي، فهو هنا يكشف عن ذات متعالية ونفس طامحة للسلطة وبهذا يقول الزيات: ((وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمه طموحاً الى المجد، بلغ من كبر نفسه إن دعا لبيعته))[١٩]، فقد كانت تحدوه الرغبة للتحرر من قيود النظام الذي يحتقره، وهو يرى إن الوسيلة الوحيدة لهذا الأمر هي السيف، فالمتنبي شاعر قد تفرد عن شعراء عصره: ((كل شعره عنتريات، وكل أخلاقياته تقوم على حماية الشرف بحد السيف، وما الشرف عنده؟ إلا الأنا ليس الأنا القبلية القديمة التي نعرفها جيداً، ولكن "أنا" جديدة علينا وعلى الشعر العربي، أنا الفرد))[٢٠]، فالمتنبي كان متعالياً يرى عن همته اكبر من همم الكثيرين كما يتضح من نتاجه الشعري، وهذه الوسيلة أي القوة كانت شائعة في عصر المتنبي، فقد كان بعض القادة يلجؤون الى السيف من أجل تحصيل ما يرومون[٢١]، والمتنبي سار على هذه الشاكلة.

فمن خلال ما سبق يتضح إن المتنبي كان أكثر الشعراء استخداماً لهذه الصفة والسبب كما أشرنا مرتبط بنفسية الشاعر ذاته، هي كون المتنبي يمتدح نفسه بهذه الصفة ويتعالى على غيره ، كذلك نلاحظ إجادة الشاعر في وصف المعارك والحروب ويعلل الدكتور عمر فروخ هذا الأمر بقوله: ((وقد برع المتنبي في وصف المعارك لأنه كان فارساً شجاعاً عالماً بأمور الجيوش، عارفاً بأساليب القتال؛ ولأنه خاض المعارك فعلاً وأبلى فيها بلاء حسناً، وفي هذا الدور هجر المتنبي التكلف وجرى في شعره على السليقة، فأخذ شعره يتدفق حماسة وفخراً))[٢٢]، فعلى رأي الدكتور عمر فروخ يكون المتنبي قد وصف المعارك حقيقة بسبب مشاركته فيها، فلم يكن متكلفاً ولهذا جاء شعره مؤثراً يتدفق بالعاطفة.

المطلب الثاني

صورة الجبن والتخلف عن القتال في شعر المتنبي

غلب على العصر العباسي الثاني كثرة الصراعات بين أمراء المسلمين انفسهم، فكل منهم كان يحاول زيادة مملكته على حساب الدول الإسلامية المنسلخة من الدولة العباسية، وقد

عانى المتنبي في ظل هذا الحكم المتسلط من قبل الموالي فكان يلوم الناس على تخاذلهم وخضوعهم للموالي والأعاجم ومن ذلك قوله [٢٣]:[المنسرح]

وَإِنَّما الناسُ بِالمُلوكِ وَما ... تُفلِحُ عُربٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أَدَبٌ عِندَهُم وَلا حَسَبٌ ... وَلا عُهودٌ لَهُم وَلا ذِمَمُ

كان الشاعر يعاني من الزمن الذي كان فيه، وهو زمن سقوط هيبة الدولة وسيطرة الاعاجم والأتراك على مقدرات الدولة العباسية حتى أصبح تنصيب الخليفة وعزله أمر يتحكمون به، يرغب أن يولى على المسلمين العرب من كان عربياً مثلهم والمتنبي كان شديد الضيق بالعجم الحاكمين منذ شبابه، فالشاعر كان يرغب أنّ يكون زعيماً، وقد سعى لهذا حتى تم سجنه، فهو يأنف من أن يرى غير العرب حاكمين له، فهو لا يرضى ان يكون إلا زعيماً [٢٤]، فالشاعر يعبر عن امتعاضه وذمه للقوم الذين رضوا أن يحكمهم غريب ليس من أصلهم، والفكرة إن المتنبي كان يعاني من حال الدولة جمعاء: ((ومن عجب أن يكثر الولاة الأعاجم، فالبويهيون يسيطرون على خراسان وما عداها، والعراق عدا الموصل، وفي الشام والرملة ومصر الاخشيديون، وهم أعاجم، ولا تبقى غير دولة بني حمدان عربية صليبة)) [٢٥]، فالشاعر كان يطمحُ أن يكون حاكماً للعرب؛ إذ هو يرى نفسه فوق الحكام، فكيف إذا خضع الاعراب للأغراب وأصبحوا تابعين لا متبوعين.

وفي صورة أخرى يشير لقوم قاتلوا مع سيف الدولة وخذلوه[٢٦]:[البحر البسيط]

غَيري بِأَكثَرِ هَذا الناسِ يَنخَدِعُ ... إِن قاتَلوا جَبُنوا أَو حَدَّثوا شَجُعوا

أَهلُ الحَفيظَةِ إِلّا أَن تُجَرِّبُهُم ... وَفي التَجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ

كان ابتداء الشاعر جميلا: إذا أشار فيه: ((بخبرته ومعرفته بدقائق الناس وما تنطوي عليه سرائرهم وانه قادر على التفريق بين أقوالهم وافعالهم))[٢٧]، في موقف عام نرى الشاعر يركز على صورة الجبان، فالسواد الأعظم من الناس كان يعيش الخمول راض بما وصلت له حال الأمة، ولهذا كان المتنبي كثير اللوم لهم، والتعريض بهم في شعره، فسيف الدولة مثل في نظر المتنبي الصورة المتكاملة للكريم، وخُذلانه خذلان العرب لأنفسهم، وكان من مناسبة القصيدة هزيمة سيف الدولة أمام الروم في معركة من المعارك، ويشير إن سبب الهزيمة خداع القوم لأميرهم، فقد غشوه ولم يعطوه النصح الصحيح وهذا كله من أجل المال لا حب بالأمير ولا بالأمة، وإن كان ذلك بالكذب على الأمير، فالمتنبي يركز على عدد من الصور منها (الكاذب– المخادع– الجبان– الغشاش) ويظهرها بمقطوعة شعرية واحدة.

وفي بيت آخر تتضح صورة التخاذل[٢٨] [المنسرح]

بِكُلِّ أَرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ تُرعى لِعَبدٍ كَأَنَّها غَنَمُ

في عصر تقطعت دولة الخلافة، وانتشر حكم الاعاجم، الذين هم بالأصل كانوا موالي وعبيد للعرب، فالشاعر يوضح هذه الفكرة، فهم قوم خضعوا لسلطة الاحتلال، ولم يفكر أحد منهم باستعادة مجد الخلافة، وتاريخها الغابر، فهم قد انحطت منازلهم حتى أصبحوا مثل الغنم يرعى أمورهم عبد، وهذه الصفة عامة لا يختص بها قوم دون قوم في نظر المتنبي، وقد اكتسب هذا الرأي بمعاشرته لهم.

وفي ذلك قوله [٢٩]: [البسيط]

وَإِنَّما نَحنُ في جيلٍ سَواسِيَةٍ شَرٍّ عَلى الحُرِّ مِن سُقمٍ عَلى بَدَنِ
حَولي بِكُلِّ مَكانٍ مِنهُمُ خِلَقٌ تُخطي إِذا جِئتَ في اِستِفهامِها بِمَنِ
لا أَقتَري بَلَداً إِلّا عَلى غَرَرٍ وَلا أَمُرُّ بِخَلقٍ غَيرِ مُضطَغِنِ
وَلا أُعاشِرُ مِن أَملاكِهِم أَحَداً إِلّا أَحَقَّ بِضَربِ الرَأسِ مِن وَثَنِ

في صورة من صور البؤس التي يصورها المتنبي في هذه الأبيات خضوع المجتمع العربي خضوعاً تاماً، حتى أصبح الجهل نعمة، فالأحرار اصبح الوضع ذاته شر عليهم من تسلط العبيد، وكل الملوك الذين يحيطون بالشاعر في البلاد التي زارها لا يتقنون العربية فلا ينطقون اللغة صحيحة، وهذا ما جعل الشاعر لا يستقر بأرض فلا يستقر الا على مضض ولا يمر بناس إلا على نية الرحيل، وكل ملك من ملوك الأعاجم في نظر المتنبي مستحق لضرب الرأس أكثر مما يستحقه الوثن فتبز صورة اللئم بثلاثة أشكال (القومية– الجهل–عدم الكفاية).

مثل قوله [٣٠]: [الوافر]

حَصَلتُ بِأَرضِ مِصرَ عَلى عَبيدٍ كَأَنَّ الحُرَّ بَينَهُمُ يَتيمُ
كَأَنَّ الأَسوَدَ اللابِيَّ فيهِم غُرابٌ حَولَهُ رَخَمٌ وَبومُ
أُخِذتُ بِمَدحِهِ فَرَأَيتُ لَهواً مَقالي لِلأُحيمِقِ يا حَليمُ

يعيش المتنبي حالة التفرد، في معاناته، في زمن ساد فيه العبيدُ وترأسه الوضعاء، فتحول الأحرار إلى غرباء أو كالأيتام لا رأي لهم ولا يهتم بهم أحد، ثم يتحول ليسترسل في صورة اللئيم، فالعبد مثل الغراب حوله طائر الرخم، وطائر البوم، فالغراب رمز التشاؤم، فضلا عن البوم رمز التشاؤم ايضاً، أما الرخم فهو طائر رقيق إذا جلس على بيضه لا يتركه حتى يقال: إنه ما شوهد بيضه قط [٣١]، فهذه صورة السلطان وحاشيته في ذلك، ثم عند المدح لهذا السلطان تشابه الأمر بين المدح وبين قولك للأحمق انك حليم، فالشاعر يبرز صورة اللئيم باستدعاء ثلاثة طيور أثنين منها رمز للشؤم والثالث للضعف والرقة، وهذه ليست من صفات السلاطين ولا من صفات الحاشية، فالشاعر يعود بالعصر الى عصر الجاهلية فيجعل الشعر ذاتياً ناطقاً عن ذات الشاعر أو بمجد قومه [٣٢]، فالشاعر يفخر في كونه حر ويلوم الموالي والعبيد في كل مكان وزمان وفي ذمه لقوم مصر على خضوعهم للعبد كافور يقول[٣٣]: [البسيط]

أَكُلَّما اِغتالَ عَبدُ السوءِ سَيِّدَهُ ... أَو خانَهُ فَلَهُ في مِصرَ تَمهيدُ
صارَ الخَصِيُّ إِمامَ الآبِقينَ بِها ... فَالحُرُّ مُستَعبَدٌ وَالعَبدُ مَعبودُ

تبرز في هذه الصورة عتب الشاعر على اهل مصر، فقد حكمهم شخص غدر بسيده، وسلب الحكم من ولده، وهو كافور الاخشيدي: ((بلغ الشعب حال من التفسخ والانحلال والذهاب وراء المصالح الفردية، والانعزال عن شؤون الدولة، وقضايا العصر السياسية، حتى لترى شخصاً مثل كافور يغتال أميره ويتسلم الحكم مكانه فلا ترتفع يد في وجهه))[٣٤]، فمصير العبد الذي استأثر بالملك من ابن سيده، وحكم مصر لسنوات طويلة، فهو يتعجب من حال الدنيا، وكيف إن مصر أصبحت تحكم من قبل عبد، فالحر قد تم استعباده من قبل العبيد في هذه البلاد التي كانت مهد للعروبة يوما ما.

وفي قوله[٣٥] [وافر]

أَما في هَذِهِ الدُنيا كَريمُ ... تَزولُ بِهِ عَنِ القَلبِ الهُمومُ
أَما في هَذِهِ الدُنيا مَكانٌ ... يُسَرُّ بِأَهلِهِ الجارُ المُقيمُ
تَشابَهَتِ البَهائِمُ وَالعِبِدّى ... عَلَينا وَالمَوالي وَالصَميمُ

يستصرخ الشاعر بصورة استفهامية باحثاً عن نكرات هي (كريم– مكان)، فهذا اللفظ يشير للعموم لا الخصوص، أي هو ينادي هل يوجد أي كريم يزيل هم القلب بإزالة العبيد وإعادة مجد الأمة، أو هل يوجد مكان فيه يمكن للشخص أن يستقر فيه بعيداً عن سطوة هؤلاء العبيد الذين أعيا المتنبي حالهم وما سببوه له، حتى إنه يقيم في ذلك المكان ولا يرحل عنه، ثم يعود ليكمل استرساله الكلامي بأن البهائم تتشابه عليهم كذلك تتشابه العبيد الحاكمين، والموالي المتسلطين، فحال الدولة كله واحد لا فرق بين مكان وآخر أي كله خاضع للأعاجم أو العبيد، ويعلق العقاد على هذه الابيات فيقول عن المتنبي: ((إنه رجل ذو فضائل، وذو عيوب وأنه شقي بفضائله في ذلك الزمن الموبوء أكثر من شقائه بعيوبه))[٣٦]، فقد شكلت معاناة الشاعر أزمة عامة فقد مثّل جيلاً كامل كان يعاني تحت وطأة العجم وسيطرته.

وتتضح هذه الصور في قوله [٣٧]: [الوافر]

يَرى الجُبَناءُ أَنَّ العَجزَ عَقلٌ ... وَتِلكَ خَديعَةُ الطَبعِ اللَئيمِ
وَكُلُّ شَجاعَةٍ في المَرءِ تُغني ... وَلا مِثلَ الشَجاعَةِ في الحَكيمِ

الحلم ضرورة من ضرورات الحياة، ولكن عندما يكون العجز بذريعة الحلم فهو لا يغني وتكون من صفة اللئام: ((فالحلم اذن عند الشاعر يتحول إلى عجز حين يصدره عن ضعف، وهو حينئذ حجة يحتج بها الحكام الذين يسمون عجزهم عن رجوع العدو حلماً، ان مقياس المهانة والكرامة هي النفس البشرية ذاتها، فإذا كان الإنسان هيناً على نفسه سهل عليه احتمال الهوان))[٣٨]، فالشاعر يركز على أنّ اللئيم يعدُّ الضعف حلماً وشتان بين الثرى والثريا.

ومن إبرازه لصفة الجبان قوله [٣٩]: [البسيط]

قُل لِلدُمُستُقِ إِنَّ المُسلَمينَ لَكُم ... خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا
وَجَدتُموهُم نِياماً في دِمائِكُمُ ... كَأَنَّ قَتلاكُمُ إِيّاهُمُ فَجَعوا

ضَعفى تَعِفُّ الأَيادي عَن مِثالِهِمِ مِنَ الأَعادي وَإِن هَمّوا بِهِم نَزَعوا
لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيسَ يَأكُلُ إِلّا المَيِّتَ الضَبُعُ

في هذه الأبيات تتعدد الصور واستدعاءات الشاعر؛ ولكنَّها تصب في مصب واحد وهو إبراز صورة الجبان، والصورة تتوزع بين فلول من جيش سيف الدولة، فقد خانوا الأمير وخذلوه فكانت عقوبتهم أن وقعوا بأسر الروم، وهم ثلة ضعيفة جبانة لا يفتخر بمن ينتصر عليهم أو يقتلهم، ولكن الروم لجبنهم لا يقوون إلا على مثل هؤلاء، ثم يعمد لتشبيه في غاية الجمال فيشبه الروم بالضبع الذي لا يأكل إلا الميتة، فكان من أسروهم أمثال الموتى فلا قيمة تعتد بهم، فالشاعر في هذه الأبيات ابرز صور مختلفة تصب كلها في مصلحة واحدة إبراز صفة الجبن [٤٠]: [الكامل]

وَمَكايِدُ السُفَهاءِ واقِعَةٌ بِهِم وَعَداوَةُ الشُعَراءِ بِئسَ المُقتَنى
لُعِنَت مُقارَنَةُ اللَئيمِ فَإِنَّها ضَيفٌ يَجِرُّ مِنَ النَدامَةِ ضَيفَنا
غَضَبُ الحَسودِ إِذا لَقيتُكَ راضِياً رُزءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مِن أَن يوزَنا

في هذه الصورة نرى الشاعر يعمد لتعداد صفات من اللؤم فالسفهاء، عندما يحيكون المكائد ويكيدون لغيرهم يقعون بما كادوا، وإن عداوة الشاعر اصعب شيء[٤١]، فالشاعر يكيد لخصمه بهجائه، وقد قيل ان العرب كانت تتجنب عداوة الشعراء، وعداوة اللئيم امر غير محبذ احتقاراً له، ثم يعرض بمن وشى به فيقول ان رضا الأمير هو غايته، فالحاسد لو غضب لم يكن المتنبي يحفل بغضبه، ولا يزن أمره بشيء فهو لا وجود له بنظر الشاعر

في هجاء لابن كليلغ لما جاء للمتنبي نبأ إن غلمان ابن كليلغ قد قتلوه فيصف جبنه وهزال جسمه في قوله [٤٢]: [البسيط]

فَسائلوا قاتِليهِ كَيفَ ماتَ لَهُم موتُ مِن الضّربْ أم مُوتاً مِن الفَرَقِ
وأين مَوقع حَدّ السّيف مِن شَبَحٍ بغير جِسمٍ ولا رَأسٍ ولا عُنُقِ

يبدأ الشاعر إبراز صفات المهجو بسخرية منه، فيصف جبنه ورعبه متسائلاً هل مات من الضرب أو الخوف؟ وكلاهما صفات تدل على الإهانة، فالضرب للجبان، والخوف لهم أيضاً، وفي السؤال الاستفهامي الثاني، فهو يسأل اين موقع حد السيف في جسم ابن كليلغ، أي ليس هنالك مكان في جسده يجعله مؤهلاً للقتل بالسيف فهو هزيل وضعيف، لدرجة يبدو مثل الشبح، فالشاعر يبرز صفات الضعف، والإهانة بشكل مثير للسخرية كما تبين.

الصورة الكاملة [٤٣]: [الطويل]

أُريكَ الرِضا لَو أَخفَتِ النَفسُ خافِيا وَما أَنا عَن نَفسي وَلا عَنكَ راضِيا
أَمَيناً وَإِخلافاً وَغَدراً وَخِسَّةً وَجُبناً أَشَخصاً لُحتَ لي أَم مَخازِيا
تَظُنُّ اِبتِساماتي رَجاءً وَغِبطَةً وَما أَنا إِلّا ضاحِكٌ مِن رَجائِيا
وَتُعجِبُني رِجلاكَ في النَعلِ إِنَّني رَأَيتُكَ ذا نَعلٍ إِذا كُنتَ حافِيا
وَإِنَّكَ لا تَدري أَلَونُكَ أَسوَدٌ مِنَ الجَهلِ أَم قَد صارَ أَبيَضَ صافِيا

وَيُذكِرُني تَخييطُ كَعبِكَ شَقَّهُ وَمَشيَكَ في ثَوبٍ مِنَ الزَيتِ عارِيا

لم يهج المتنبي أحد مثل ما هجا كافور والهجاء كما هو متعارف: ((غرض من اغراض الشعر يتناول فيه الشاعر بالذّم والتشهير عيوب خصمه المعنوية والجسمية، وهو نقيض المدح، أن المدح يذكر الفضائل والهجاء يذكر الرذائل)) [٤٤]، فالشاعر يتعرض لخصمه بكل صفات الذم المتعارف عليها، فهو في البيت الثاني يذكر عدد من الصفات حتى لا يكاد المتنبي يميز بين المخازي وبين كافور الاخشيدي، ثم ينتقل الشاعر لحوار شعري فيظن كافور أنه فرحٌ ويرجو من كافور العطاء، وهو في نفسه يضحك من هذا الرجاء ذاته، فمن كانت شمائله تلك لا يرجى منه شيء، ثم ينتقل لصورة من صور السخرية فيصف إن رجلا كافور متسخة حتى تغير لونها لدرجة إن المتنبي ظن إن كافور يلبس النعال على الرغم من كونه كان حافياً وقتها كناية عن العبودية، ثم يعمد لوصفة بأنه جاهل أشد الجهل لدرجة أنّ لا يميز بين لونه اسود أم ابيض بسبب الجهل، فهذه صفات شخص لا يصلح أن يقوم بأي شيء، وليس الحكم على بلد مثل مصر، فنلاحظ أن هذه المقطوعة تتجلى بها كل صفة تخص اللئيم، ويصح أن نقول إنها الصورة الكاملة للئيم على الرغم من كونه لم يتطرق للنسب، ولكنه عبد والعبيد لا يعتد بنسبهم بنظر العربي وهذه بذاتها مثلبة تخص كافور.

ومن صور الذليل المهان هجاؤه لابن كليلغ في قوله [٤٥]: [الطويل]

وَإِسحاقُ مَأمونٌ عَلى مَن أَهانَه وَلَكِن تَسَلّى بِالبُكاءِ قَليلا

وَلَيسَ جَميلاً عِرضُهُ فَيَصونَهُ وَلَيسَ جَميلاً أَن يَكونَ جَميلا

وَيَكذِبُ ما أَذَلَلتُهُ بِهِجائِهِ لَقَد كانَ مِن قَبلِ الهِجاءِ ذَليلا

في تجمع صفات الذل والمهانة التي يصبها الشاعر على من يهجوه فيجعلها ممزوجة بكيانه كأنها جزء منه، فقد بلغ به الذل مبلغاً إن من يهينه يكون آمن مأمونه منه فلا يرد الإهانة ولا يثأر وكل ما يقوم به هو أن يتسلى بالبكاء كما تفعل النساء، ثم ينتقل فيصف إن عرضه ليس مصاناً، ورجل بذلته ومهانته لا يجوز أن يصون عرضه او يحميه فهو عاجز عن رد الأذى عن نفسه، ثم ينتقل لمستوى اخر من الحط من منزلة المهجو وتقليل قدره، فيقول إن الشعر الذي هجاه به لم يسبب ذلة له، فهو ذليل قبل الشعر، فالذل صفة متأصلة فيه كما أشرنا، وبهذا فالشاعر يعمد لوصف مهجوه بعدد من الصفات التي يمكن القول: إنها تنطوي تحت مفهوم اللؤم.

نلاحظ أنّ المتنبي كثيراً ما ركز على هذه الصفة، إذ مثل شعره ثورة على النظام السياسي في وقته، فكان يرغب بان يثور العرب وقد تابع سيف الدولة، كونه قائد يقاتل عن امجاد العرب وأمة الإسلام على حدّ سواء.

الخاتمة

بعد وصولنا لهذه المرحلة النهائية سوف نذكر اهم النتائج التي توصل اليها البحث.

١. كثيراً ما ركز المتنبي على صفة الشجاعة في شعره، والسبب في ذلك كون الشاعر ابن بيئته فهو يؤثر ويتأثر بها، فالعصر الذي كان فيه المتنبي عصر الحروب بين الدويلات الإسلامية.
٢. اعتمد الشاعر بصورة كبيرة على ابراز الصفات الضدية(الشجاعة/ الجبن)، فيصف الممدوح بالشجاعة ويذم اعداءه ويصفهم بالجبن نظير مدحه لسيف الدولة ، وهجائه لخصومه الروم.

٣. وصف الشاعر ممدوحين عدةّ بهذه الصفات، ولكنه اكثر في وصف السيف الدولة، والسبب راجع برأينا لثلاث أمور (كون سيف الدولة عربي، وهو في الوقت ذاته يقاتل الروم، فضلا عن كون المتنبي قد شارك في عديد من حروب سيف الدولة لهذا جاد وصفها.

٤. يعد شعر الشجاعة والجبن من أروع الاوصاف التي جاء بها المتنبي ، وهذا راجع لنوازعه النفسيه، فكان يرغب بتحصيل امارة او ولاية، ولكن الظروف لم تسعفه، واشرنا أنّ وسيلة الملك في تلك المدة هي القوة فكثير ما تطرق لها فـي شعره.

---

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م: ١٤/ ١٦٧.

(٢) ديوان المتنبي: ٣٣٢/١.

(٣) ينظر: المتنبي، محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، ١٩٨٧م:٣٢٤.

(٤) م مع المتنبي، طه حسين، مؤسسة هنداوي، مصر، (د.ط)، (د.ت)

: ١٤٨.

(٥) ديوان المتنبي: ١٧٥/٤.

(٦) ينظر: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للواحدي، مكتبة القدس – القاهرة:٣/ ٥٦.

(٧) ينظر: الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى، أبو سعد محمد بن أحمد العميدي، تحقيق: إبراهيم الدسوقي البساطي، دار المعارف – مصر، ١٩٦١م: ١٦١

(٨) ينظر: شعر المتنبي..قراءة أخرى، دار المعارف – القاهرة، د. محمد فتوح أحمد، ط٢، ١٩٨٨م: ٩٠.

(٩) ديوان أبي الطيب المتنبي:١/ ٢٨١.

(١٠) يُنظر: ديوان أبي الطيب المتنبي:١/ ٢٨١.

(١١) مع المتنبي في شعر الحماسة والحكمة، هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

:٥٣.

(١٢) يُنظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١:٢/ ٣٤٠.

(١٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، ج٣، ص٣٤-٣٥.

(١٤) مع المتنبي شعر الحماسة والحكمة:٥٩.

(١٥) يُنظر: ديوان أبي الطيب المتنبي:٣/٣٤-٣٥.

(١٦) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ:٢/ ٤٠٠.

(١٧) مع المتنبي: ١٤٦.

(١٨) ديوان أبي الطيب المتنبي:٤/٤٢-٤٣.

(١٩) تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات: ٢٩٨.

(٢٠) تألق الشعر: ٢٦٢.

(٢١) يُنظر: المتنبي بين ناقديه قديماً وحديثا:٢.

(٢٢) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج٢، ص٤٦٢.

(٢٣) ديوان المتنبي: ٥٩/٤.

(٢٤) يُنظر: تألق الشعر، عارف حجاوي، دار الشروق، ، القاهرة، ط١، ٢٠١٧: ٢٢.

(٢٥) يُنظر: دراسات في الأدب العربي، انعام الجندي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٦٧: ٧٩.

(٢٦) ديوان المتنبي: ٢/ ٢٢٢

(٢٧) رائعة المتنبي غير بأكثر هذا الناس ينخدع في مدح سيف الدولة، إبراهيم حسن أحمد حسن، دار الحرم، ط١، ٢٠٢٤: ٣٣.

[٢٨] ديوان المتنبي: ٤/ ٥٩.

[٢٩] ديوان المتنبي: ٤/٢٠٩.

[٣٠] ديوان المتنبي:٤/١٥١.

[٣١] مقاييس اللغة، احمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مصر، ١٩٧٩: ٥/ ٢٢٦.

: ٥/١٧١-١٧٢.

[٣٢] يُنظر: تألق الشعر: ٢٧٢.

[٣٣] ديوان المتنبي: ٢/٤٢.

[٣٤] دراسات في الادب العربي: ٢٢٢.

[٣٥] ديوان المتنبي:٤/١٥١

[٣٦]أبو الطيب المتنبي، عباس محمود العقاد، المجلة العربية، ١٤٣٦هـ: ١٤٢.

[٣٧] ديوان المتنبي: ٤/ ٣١٢.

[٣٨] مع المتنبي في شعر الحماسة والحكمة: ٦٤.

[٣٩] ديوان المتنبي:٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

[٤٠] ديوان المتنبي: ٤/ ١٩٥.

[٤١] الموضح في شعر ابي الطبيب المتنبي، أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، بغددا، ط٣، ٢٠٠٢: ٢٥٧.

[٤٢] ديوان المتنبي: ٢/٣٦٠٣٦١.

[٤٣] ديوان المتنبي:٤/٢٩٤-٢٩٥.

[٤٤]الأدب الجاهلي (قضاياه. أغراضه. اعلامه. فنونه)، غازي طليمات، عرفان الأشقر، دار الارشاد، حمص، ط١، ١٩٩٢: ١٧٩.

[٤٥] ديوان المتنبي: ٢/ ٢٦٤.

المصادر والمراجع

١. الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى، أبو سعد محمد بن أحمد العميدي، تحقيق: إبراهيم الدسوقي البساطي، دار المعارف – مصر، ١٩٦١م.

٢. أبو الطيب المتنبي، عباس محمود العقاد، المجلة العربية، ١٤٣٦هـ.

٣. الأدب الجاهلي (قضاياه. أغراضه. اعلامه. فنونه)، غازي طليمات، عرفان الأشقر، دار الارشاد، حمص، ط١، ١٩٩٢.

٤. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١.

٥. تألق الشعر، عارف حجاوي، دار الشروق، ، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.

٦. دراسات في الأدب العربي، انعام الجندي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٦٧.

٧. رائعة المتنبي غير بأكثر هذا الناس ينخدع في مدح سيف الدولة، إبراهيم حسن أحمد حسن، دار الحرم، ط١، ٢٠٢٤.

٨. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للواحدي، مكتبة القدس – القاهرة.

٩. شعر المتنبي..قراءة أخرى، دار المعارف – القاهرة، د. محمد فتوح أحمد، ط٢، ١٩٨٨م.

١٠. مع المتنبي، طه حسين، مؤسسة هنداوي، مصر، (د.ط)، (د.ت)

١١. المتنبي، محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، ١٩٨٧م.

١٢. مع المتنبي في شعر الحماسة والحكمة، هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

١٣. مقاييس اللغة، احمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مصر، ١٩٧٩.

١٤. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٥. الموضح في شعر ابي الطيب المتنبي، أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، بغددا، ط٣، ٢٠٠٢.